مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْحَيَاةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ

فَقَدْ مَرَّ مَعَنَا بَيَانُ حَالَةِ الْعَالَمِ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا كَانَ يَسُودُ الْعَالَمَ مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَفَسَادٍ وَطُغْيَانٍ، وَانْحِرَافٍ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، وَمَرَّ مَعَنَا -بِفَضْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بَيَانُ بَعْضِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَاحِيَةِ الدِّينِ، وَفِي نَاحِيَةِ الْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ، وَفِي نَاحِيَةِ الاقْتِصَادِ.

وَأَمَّا الْحَالَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ أَوْضَاعٌ وَتَقَالِيدُ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَقَوَانِينُ عُرْفِيَّةٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ، وَعَلَاقَةِ الْقَبِيلَةِ بِالْأُخْرَىٰ، وَعَلَاقَةِ الْأَفْرَادِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُسْرَةِ مِنْ نِكَاحٍ وَطَلَاقٍ، وَثُبُوتِ نَسَبٍ، وَوَضْعِ الْمَرْأَةِ فِي الْأُسْرَةِ، وَالْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، وَنِظَامِ التَّوَارُثِ،... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ.

وَيُمْكِنُ إِجْمَالُ ذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي:

www.menhag-un.com

المُبَالَغَةُ فِي التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ

الِاعْتِزَازُ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ:

النَّسَبُ: الْقَرَابَةُ مِنْ جِهَةِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ.

وَالْحَسَبُ (بِفَتْحِ الْحَاءِ وَالسِّينِ): مَا يُعَدُّ مِنَ الْمَآثِرِ وَالْفَضَائِلِ؛ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْجُودِ، وَنَحْوِهَا. مَأْخُوذٌ مِنَ الْحِسَابِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَفَاخَرُوا حَسِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مَنَاقِبَهُ، وَمَنَاقِبَ آبَائِهِ وَمَآثِرَهُمْ.

فَكَانُوا يَعْتَزُّونَ اعْتِزَازًا لَا حَدَّ لَهُ بِالْأَنْسَابِ وَالْأَحْسَابِ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهِمَا، وَقَدْ حَرَصَ الْعَرَبُ حَضَرًا وَبَدْوًا عَلَىٰ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ أَنْسَابِهِمْ؛ فَلَمْ يُصَاهِرُوا غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَجْنَاسِ الْأُخْرَىٰ اعْتِزَازًا بِالدَّمِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يَخْتَلِطَ بِغَيْرِهِ.

وَقَدْ أَبَىٰ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ أَنْ يُزَوِّجَ إِحْدَىٰ بَنَاتِهِ مِنْ كِسْرَىٰ، أَوْ أَنْ يُزَوِّجَ أَحَدَ أَوْلَادِهِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ تَابِعًا لَهُ، وَتَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ هَذَا الْإِبَاءِ وَالرَّفْضِ مَا تَحَمَّلَ!

وَقَدْ بَالَغُوا فِي التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ حَتَّىٰ أَضَاعُوا وَقْتَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١- ٢].

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، قَضَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ التَّفَاضُلَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْوَىٰ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ النَّسَبَ الْأَصِيلَ إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، بَلَغَ الْإِنْسَانُ بِهِ غَايَةَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، وَكَذَلِكَ حَافَظُوا عَلَىٰ أَنْسَابِ خُيُولِهِمُ الْأَصِيلَةِ، وَإِبِلِهِمُ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الِاعْتِزَازِ بِالْأَنْسَابِ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الاِعْتِزَازُ بِالْكَلِمَةِ وَسُلْطَانِهَا

وَكَانُوا يَعْتَزُّونَ بِالْكَلِمَةِ وَبِسُلْطَانِهَا، لَا سِيَّمَا الشِّعْرُ؛ فَقَدْ كَانَ شِعْرُهُمْ سِجِلَّ مَفَاخِرِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ، وَدِيوَانَ مَعَارِفِهِمْ وَعَوَاطِفِهِمْ، فَلَا تَعْجَبْ إِذَا كَانَ نَجَمَ فِيهِمُ الْخُطَبَاءُ الْمَصَاقِعُ، وَالشُّعَرَاءُ الْفَطَاحِلُ، وَقَدْ كَانَ الْبَيْتُ مِنَ الشِّعْرِ يَرْفَعُ الْقَبِيلَةَ، وَالْبَيْتُ يَخْفِضُهَا؛ وَلِذَلِكَ مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِشَاعِرٍ يَنْبُغُ فِي الْقَبِيلَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُعْتَبَرُ رَمْزًا لَهَا، وَكَانَ الْمُنَافِحَ عَنْهَا، وَالْمُتَغَنِّيَ بِمَفَاخِرِهَا وَأَمْجَادِهَا.

وَكَانَتْ تَسْتَهْوِيهِمُ الْكَلِمَةُ الْفَصِيحَةُ وَالْأُسْلُوبُ الْبَلِيغُ، وَلِمَكَانِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مِنَ الْعَرَبِ، كَانَتْ آيَةُ النَّبِيِّ الْكُبْرَىٰ قُرْآنًا يُتْلَىٰ، وَفِي أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَقَدْ أَهَّلَتْهُمْ مَلَكَةُ الْبَيَانِ لِحَمْلِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ فِيمَا بَعْدُ، وَالْمُنَافَحَةِ عَنْهَا بِاللِّسَانِ وَالْبَيَانِ.

www.menhag-un.com

الْمَرْأَةُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ قَبْلَ الْبِعْثَةِ

وَأَمَّا وَضْعُ الْمَرْأَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِلِ كَسَقَطِ الْمَتَاعِ؛ فَقَدْ كَانَتْ تُورَثُ.

وَكَانَ الِابْنُ الْأَكْبَرُ لِلزَّوْجِ مِنْ غَيْرِهَا مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُزَوِّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ أَوْ يَعْضُلَهَا عَنِ النِّكَاحِ حَتَّىٰ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ.

وَكَانَ الِابْنُ يَتَزَوَّجُ امْرَأَةَ أَبِيهِ، فَحَرَّمَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ، وَسَمَّاهُ نِكَاحَ الْمَقْتِ.

وَمَا كَانُوا يُوَرِّثُونَهَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا يَرِثُ مَنْ يُحَارِبُ وَيُجَالِدُ، حَتَّىٰ جَعَلَ الْإِسْلَامُ لِلْمَرْأَةِ حَقًّا مَفْرُوضًا.

كَمَا كَانُوا يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، حَتَّىٰ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ.

وَمِنَ الْحَقِّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ بَعْضَ الْقَبَائِلِ كَانَتْ تُجِلُّ الْمَرْأَةَ وَتَحْتَرِمُهَا، وَتَأْخُذُ رَأْيَهَا فِي الزَّوَاجِ، وَكُتُبُ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْقِصَصِ بِذَلِكَ.

وَالْعَرَبُ جَمِيعًا يَغَارُونَ عَلَىٰ أَعْرَاضِهِمْ، وَ يُحَافِظُونَ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ؛ الْعَرَبِيُّ قَدْ يَقْتُلُ، وَقَدْ يَسْطُو عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، وَلَكِنْ تَأْبَىٰ عَلَيْهِ مُرُوءَتُهُ أَنْ يَنْتَهِزَ ضَعْفَ امْرَأَةٍ، أَوْ وَحْدَتَهَا فِي سَفَرٍ -مَثَلًا- فَيَنْتَهِكَ عِرْضَهَا.

وَالْمَرْأَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْحُرَّةُ كَانَتْ تَأْنَفُ أَنْ تُفْتَرَشَ لِغَيْرِ زَوْجِهَا وَحَلِيلِهَا، وَكَانَتْ -أَيْضًا- تَتَّسِمُ بِالشَّجَاعَةِ؛ تَتْبَعُ الْمُحَارِبِينَ وَتُشَجِّعُهُمْ، وَقَدْ تُشَارِكُ مَعَهُمْ فِي الْقِتَالِ إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَحْظَىٰ فِيهِ الرَّجُلُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ بِالسُّلْطَةِ التَّامَّةِ وَالْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ، تَجِدُ الْمَرْأَةَ مَهْضُومَةَ الْجَانِبِ مَسْلُوبَةَ الْحُقُوقِ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَظَاهِرِ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ: كُرْهُ الْمَرْأَةِ، وَالتَّشَاؤُمُ مِنْ إِنْجَابِ الْبَنَاتِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩].

وَرُبَّمَا أَدَّىٰ هَذَا الْكُرْهُ إِلَىٰ وَأْدِ الْبَنَاتِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَفْرَادِ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْعَادَةَ الْمَقِيتَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩]. وَيَعُودُ هَذَا الْكُرْهُ وَالْوَأْدُ لِلْبَنَاتِ إِلَىٰ الْخَوْفِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْعَارِ؛ حَيْثُ الْمَرْأَةُ مُعَرَّضَةٌ لِلسَّبْيِ لِكَثْرَةِ الْحُرُوبِ عِنْدَ الْعَرَبِ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ: حِرْمَانُهَا مِنَ الْمِيرَاثِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يَرِثُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُ السَّيْفَ، وَيَحْمِي الْبَيْضَةَ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ ظُلْمِهَا: اعْتِبَارُهَا جُزْءًا مِنْ مَتَاعِ الرَّجُلِ؛ فَإِذَا مَاتَ الرَّجُلُ وَلَهُ أَبْنَاءٌ مِنْ غَيْرِهَا، كَانَ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ أَحَقَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ؛ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ...﴾ [النساء: ١٩] الْآيَةَ، قَالَ -أَيِ: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا؛ فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

مَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الظَّالِمَةِ لِلْمَرْأَةِ، اسْتَطَاعَ عَدَدٌ مِنَ النِّسَاءِ فَرْضَ أَنْفُسِهِنَّ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ؛ حَيْثُ لَفَتْنَ الْأَنْظَارَ إِلَيْهِنَّ بِمَا أُوتِينَ مِنْ رَجَاحَةٍ فِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ، وَحُسْنِ تَصَرُّفٍ وَشَجَاعَةٍ، كَمَا بَرَزَ بَعْضُهُنَّ فِي مَجَالِ التِّجَارَةِ.

لَمْ يَكُنْ ظُلْمُ الْمَرْأَةِ خَاصًّا بِالْعَرَبِ، بَلْ تَعَرَّضَتْ لِظُلْمٍ مِثْلِهِ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ عِنْدَ الْيُونَانِ، وَالْفُرْسِ، وَالْهُنُودِ، وَغَيْرِهِمْ.

وَالْمَرْأَةُ الْبَدَوِيَّةُ تُشَارِكُ زَوْجَهَا فِي رَعْيِ الْمَاشِيَةِ وَسَقْيِهَا، وَتَغْزِلُ الْوَبَرَ وَالصُّوفَ، وَتَنْسِجُ الثِّيَابَ وَالْبُرُودَ وَالْأَكْسِيَةَ، مَعَ التَّصَوُّنِ وَالتَّعَفُّفِ.

وَمِنْ صِفَاتِهَا: أَنَّهَا تَضْجَرُ مِنَ الْحَضَرِ، وَتَرَىٰ الْحُرِّيَّةَ وَالْهُدُوءَ وَالصَّفَاءَ فِي الْبَادِيَةِ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ قِصَّةِ مَيْسُونَ بِنْتِ بَحْدَلٍ الَّتِي تَزَوَّجَهَا خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَوَلَدَتْ لَهُ يَزِيدَ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تُطِقْ حَيَاةَ

الْقُصُورِ، وَلَا النَّعِيمَ وَالتَّرَفَ، وَتَاقَتْ إِلَىٰ الْخِيَامِ، وَاشْتَاقَتْ إِلَىٰ الْعَيْشِ الْجَافِّ، وَإِلَىٰ بَدَوِيٍّ مِثْلِهَا فَقَالَتْ:

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ
وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَأَكْلُ كُسَيْرَةٍ فِي قَعْرِ بَيْتِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ
وَخِرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي ضَعِيفٌ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَلِيفِ

فَلَمَّا بَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه مَقَالَتُهَا، سَرَّحَهَا وَأَعَادَهَا مُعَزَّزَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

وَلَمْ يَكُنِ لِلْعَرَبِ حَدٌّ مَحْدُودٌ فِي النِّكَاحِ؛ فَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ الْعَشْرُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَكْثَرُ وَالْأَقَلُّ، فَقَصَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَرْبَعٍ، إِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الْإِنْفَاقَ عَلَيْهِنَّ، وَالْعَدْلَ بَيْنَهُنَّ، فَإِنْ خَافَ عَدَمَ الْعَدْلِ فَلْيَكْتَفِ بِوَاحِدَةٍ، وَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَلْتَزِمُونَ الْعَدْلَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ، وَكَانُوا يُسِيئُونَ عِشْرَتَهُنَّ، وَيَهْضِمُونَ حُقُوقَهُنَّ، حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَنْصَفَهُنَّ، وَأَوْصَىٰ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ فِي الْعِشْرَةِ، وَقَرَّرَ لَهُنَّ حُقُوقًا مَا كُنَّ يَحْلُمْنَ بِهَا.

وَكَانَتْ هُنَاكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْكِحَةٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا الصَّحِيحُ: الَّذِي هُوَ كَأَنْكِحَتِنَا الْيَوْمَ بِخِطْبَةٍ وَوَلِيٍّ وَمَهْرٍ.

وَمِنْهَا الْفَاسِدُ؛ فَمِنَ الْفَاسِدِ: نِكَاحُ الاسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحُ التَّوَاطُؤِ، وَنِكَاحُ الْبَغَايَا، وَنِكَاحُ الشِّغَارِ، وَنَحْوُهَا.

وَالنِّكَاحُ الصَّحِيحُ كَانَ يَلْتَزِمُهُ أَكْثَرُ الْعَرَبِ، لَاسِيَّمَا الْأَشْرَافُ مِنْهُمْ، وَإِلَيْكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ -النَّحْوُ أَي: الضَّرْبُ وَزْنًا وَمَعْنًىٰ، أَوِ النَّوْعُ- كَانَ النِّكَاحُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا: نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَىٰ الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَىٰ فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ؛ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ. فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّىٰ يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا؛ تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ.. تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيُلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحٌ رَابِعٌ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ، لَا تَمْنَعُ مَنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا، جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهَا الْقَافَةَ -وَهُمُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ شَبَهَ الْوَلَدِ بِالْوَالِدِ بِالسِّمَاتِ الْخِلْقِيَّةِ، جَمْعُ: قَائِفٍ- فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا، جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهَا الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنْحَاءً أُخْرَىٰ لَمْ تَذْكُرْهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

كَنِكَاحِ الْخِدْنِ: وَهُوَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، كَانُوا يَقُولُونَ: مَا اسْتَتَرَ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَمَا ظَهَرَ فَهُوَ لَوْمٌ، وَهُوَ إِلَىٰ الزِّنَا أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَىٰ النِّكَاحِ.

وَكَنِكَاحِ الْمُتْعَةِ: وَهُوَ النِّكَاحُ الْمُعَيَّنُ بِوَقْتٍ.

وَنِكَاحِ الْبَدَلِ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ لِلرَّجُلِ: انْزِلْ لِي عَنِ امْرَأَتِكَ، وَأَنْزِلُ لَكَ عَنِ امْرَأَتِي وَأَزِيدُكَ.

وَمِنَ الْأَنْكِحَةِ الْبَاطِلَةِ: نِكَاحُ الشِّغَارِ: وَهُوَ أَنْ يُزَوِّجَ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ عَلَىٰ أَنْ يُزَوِّجَهُ الْآخَرُ ابْنَتَهُ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا صَدَاقٌ.

فَهَذَا كَانَ كُلُّهُ مِنْ أَنْكِحَةِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَا كَانَ صَحِيحًا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَكَانُوا يُمَارِسُونَ الطَّلَاقَ، وَلَمْ يَكُنْ لِلطَّلَاقِ عِنْدَهُمْ عَدَدٌ مُحَدَّدٌ، فَكَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ، ثُمَّ يُرَاجِعُهَا، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا، ثُمَّ يُرَاجِعُهَا، هَكَذَا أَبَدًا، وَبَقِيَ هَذَا الْأَمْرُ مَعْمُولًا بِهِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قَوْلَهُ: ﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فَقَيَّدَ الْإِسْلَامُ عَدَدَ الطَّلْقَاتِ،

وَأَعْطَىٰ لِلزَّوْجِ فُرْصَةً لِيَتَدَارَكَ أَمْرَهُ، وَلِيُرَاجِعَ زَوْجَتَهُ، أَعْطَىٰ الْإِسْلَامُ الزَّوْجَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ مَرَّتَيْنِ، فَإِذَا طَلَّقَ الثَّالِثَةَ فَقَدِ انْقَطَعَتْ عُرْوَةُ النِّكَاحِ، وَلَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ آخَرَ؛ كَمَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وَمِمَّا كَانَ يَلْحَقُ بِالطَّلَاقِ فِي التَّحْرِيمِ: الظِّهَارُ: وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. وَكَانَ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَوَسَمَهُ بِأَنَّهُ مُنْكَرٌ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٌ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجِ مَخْرَجًا مِنْهُ وَذَلِكَ بِالْكَفَّارَةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢- ٤].

www.menhag-un.com

وَأْدُ الْبَنَاتِ وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ

وَمِنَ الْمَآسِي الَّتِي كَانَتْ تُزَاوِلُهَا بَعْضُ الْقَبَائِلِ: وَأْدُ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ، وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ مِنَ الْفَقْرِ أَوْ خَشْيَةَ الْفَقْرِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

الْوَأْدُ: كَانَ أَنْ يَحْفُرَ لِلْبِنْتِ حُفْرَةٌ فِي التُّرَابِ، ثُمَّ تُلْقَىٰ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ حَيَّةً، وَيُهَالُ عَلَيْهَا التُّرَابُ.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ السَّبَبَ فِي وَأْدِ الْبَنَاتِ أَنَّ قَبِيلَةً حَارَبَتْ أُخْرَىٰ فَغَلَبَتْهَا، وَسَبَتْ نِسَاءَهَا وَبَنَاتِهَا، وَتَزَوَّجُوا بِهِنَّ، فَلَمَّا تَصَالَحُوا خُيِّرَ النِّسَاءُ وَالْبَنَاتُ أَنْ يَرْجِعْنَ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ وَأَهْلِيهِنَّ، وَبَيْنَ الْبَقَاءِ عِنْدَ مَنْ تَزَوَّجُوهُنَّ، فَاخْتَرْنَ الْبَقَاءَ، قَالَ رِجَالُ الْقَبِيلَةِ الْأُخْرَىٰ: عَلَىٰ أُنْفُسِهِمْ أَنْ يَئِدُوا الْبَنَاتِ وَهُنَّ صَغِيرَاتٌ، ثُمَّ فَشَتْ هَذِهِ الْعَادَةُ عِنْدَ غَيْرِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ مُجَارَاةً لَهَا أَوْ خَوْفًا أَنْ يُصِيبَهَا مَا أَصَابَهَا.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ سَفَهِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الذُّكُورَ، وَكَانَ مِنَ الْعَارِ وَالْخِزْيِ أَنْ يُبَشَّرَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِأَنَّ امْرَأَتَهُ وَلَدَتْ أُنْثَىٰ، وَيُدْرِكُهُ مِنَ الْحَسْرَةِ، وَالْكَمَدِ مَا يَجْعَلُهُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ذَلِكَ بِهَذَا الْبَيَانِ الْبَارِعِ الرَّائِعِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧- ٥٩].

كَانَ فِي الْعَرَبِ قَبَائِلُ لَا تَئِدُ الْبَنَاتِ، كَمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَقْبِحُونَ هَذِهِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ، كَزَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ قَضَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَكَرَّمَ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ، وَأَوْصَىٰ بِهِنَّ وَبِهِمْ خَيْرًا، وَكَانَ فِي الْمُثُلِ الْعَالِيَةِ الَّتِي كَانَ يَضْرِبُهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مُعَامَلَةِ بَنَاتِهِ وَبَنَاتِهِنَّ، وَفِي مُعَامَلَةِ أَوْلَادِهِنَّ، وَبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ فِي ذَلِكَ أَكْبَرَ مُعَلِّمٍ وَمُهَذِّبٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ.

www.menhag-un.com

الْحُرُوبُ وَالسَّطْوُ وَالْإِغَارَةُ

مِمَّا كَانَ فَاشِيًا بَيْنَ الْعَرَبِ: الْحُرُوبُ، وَالسَّطْوُ، وَالْإِغَارَةُ؛ كَانَتْ تَقُومُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْحُرُوبُ لِأَتْفَهِ الْأَسْبَابِ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ، أَوْ سِبَاقِ فَرَسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَذَلِكَ كَحَرْبِ الْبَسُوسِ: الَّتِي قَامَتْ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ أَرْبَعِينَ عَامًا مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ، حَتَّىٰ أَكَلَتِ الْكَثِيرَ مِنْ أَبْطَالِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ، وَكَانَ مِنْ ضَحَايَاهَا كُلَيْبُ بْنُ رَبِيعَةَ.

وَكَحَرْبِ دَاحِسَ وَالْغَبْرَاءِ الَّتِي قَامَتْ وَدَامَتْ طَوِيلًا بِسَبَبِ سِبَاقِ فَرَسَيْنِ.

وَكَانَ يَغْلِبُ عَلَىٰ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الْبَدْوِ السَّطْوُ وَالْإِغَارَةُ قَصْدَ نَهْبِ الْأَمْوَالِ، وَسَبْيِ الْأَحْرَارِ وَبَيْعِهِمْ؛ كَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ كَانَ عَرَبِيًّا حُرًّا، وَكَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ فَقَدْ كَانَ حُرًّا.

وَقَدْ قَضَىٰ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ كَانَتْ تَسِيرُ الْمَرْأَةُ -فَضْلًا عَنِ الرَّجُلِ- مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهَا.

www.menhag-un.com

الْعِلْمُ وَالْقِرَاءَةُ وَالْكِتَابَةُ

وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ أُمَّةً أُمِّيَّةً لَا تَكْتُبُ وَلَا تَحْسُبُ، وَهَذِهِ هِيَ الصِّفَةُ الَّتِي كَانَتْ غَالِبَةً عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، بَلْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ وَالْأُمِّيَّةُ وَالتَّقْلِيدُ وَالْجُمُودُ عَلَىٰ الْقَدِيمِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا.

وَكَانَ فِيهِمْ قَلِيلٌ مِمَّنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ أُمِّيَّتِهِمْ وَعَدَمِ اتِّسَاعِ مَعَارِفِهِمْ، كَانُوا يُشْتَهَرُونَ بِالذَّكَاءِ، وَالْفِطْنَةِ، وَ الْأَلْمَعِيَّةِ، وَلُطْفِ الْمَشَاعِرِ، وَإِرْهَافِ الْحِسِّ، وَحُسْنِ الِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِقَبُولِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالتَّوْجِيهِ الرَّشِيدِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَصَارُوا عُلَمَاءَ حُكَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَزَالَتْ عَنْهُمُ الْأُمِّيَّةُ، وَصَارَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِهِمْ.

وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ عِلْمَ النُّجُومِ وَمَسَارَاتِهَا، وَيَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ الِاهْتِدَاءِ بِهَا، وَيَعْرِفُ الْأَنْوَاءَ وَسُقُوطَ الْأَمْطَارِ، وَيَتَحَسَّسُ مَخَابِئَ الْمَاءِ تَحْتَ أَطْبَاقِ الْأَرْضِ، كَمَا مَهَرُوا فِي عِلْمِ قَفِّ الْأَثَرِ، وَهُوَ الْقِيَافَةُ.

وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ كَالْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ، وَكَانَ طِبُّهُمْ مَبْنِيًّا عَلَىٰ التَّجَارِبِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْبِيئَةِ.

فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

الْحَالَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ

وَأَمَّا الْحَالَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ بَعْضُ الْأَخْلَاقِ الْمَرْذُولَةِ؛ كَالْعُنْجُهِيَّةِ، وَالْعَصَبِيَّةِ، وَالظُّلْمِ، وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَالْأَخْذِ بِالثَّأْرِ، وَاغْتِصَابِ الْأَمْوَالِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتَامَىٰ، وَالتَّعَامُلِ بِالرِّبَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالسَّرِقَةِ، وَالزِّنَا.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الزِّنَا إِنَّمَا كَانَ فِي الْإِمَاءِ، وَأَصْحَابِ الرَّايَاتِ مِنَ الْبَغَايَا، وَيَنْدُرُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرَائِرِ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَخَذَ الْبَيْعَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ بَعْدَ الْفَتْحِ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَتْ: أَوَتَزْنِي الْحُرَّةُ؟!

وَكَانُوا يُزَاوِلُونَ أَلْوَانًا مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالْمُجُونِ وَالشَّطَارَةِ -وَهِيَ اتِّبَاعُ وَسَائِلِ الْخُبْثِ وَاللُّؤْمِ؛ كَمُغَازَلَةِ النِّسَاءِ، وَمُعَاكَسَةِ الْإِمَاءِ، وَالتَّعَرُّضِ إِلَيْهِنَّ بِاللَّيْلِ، وَتَصَنُّعِ الْبُطُولَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ-، فَكَانُوا يُزَاوِلُونَ أَلْوَانًا مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالْمُجُونِ وَالشَّطَارَةِ، وَالْقِمَارِ -وَهُوَ الْمَيْسِرُ-، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

www.minhaj-un.com

مِنْ فَضَائِلِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَىٰ هَذَا؛ لَقَدْ كَانَ فِيهِمْ كَثِيرٌ لَا يَزْنُونَ، وَلَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَلَا يَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ وَلَا يَظْلِمُونَ، وَيَتَحَرَّجُونَ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ، وَيَتَنَزَّهُونَ عَنِ التَّعَامُلِ بِالرِّبَا، هَذَا وَلَكِنْ -مَعَ الْحَقِّ- أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي فَضَائِلَ وَأَخْلَاقٍ كَرِيمَةٍ مُتَأَصِّلَةٍ فِيهِمْ، بَلِ الرَّأْيُ أَنَّ فَضَائِلَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَثَالِبِهِمْ؛ لِهَذَا اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ خَاتَمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ مِنْهُمْ، وَاسْتَأْهَلُوا أَنْ يَكُونُوا حَمَلَةَ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ؛ لِيُبَلِّغُوهَا إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً.

مِنْ فَضَائِلِهِمْ: الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ؛ فَقَدْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ صَافِيَةً، لَمْ تَدْخُلْهَا تِلْكَ الْفَلْسَفَاتُ وَالْأَسَاطِيرُ وَالْخُرَافَاتُ الَّتِي يَصْعُبُ إِزَالَتُهَا كَمَا فِي الشُّعُوبِ الْهِنْدِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ، فَكَأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ تُعَدُّ لِحَمْلِ أَعْظَمِ رِسَالَةٍ فِي الْوُجُودِ، وَهِيَ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ الْخَالِدَةُ؛ لِهَذَا كَانُوا أَحْفَظَ شَعْبٍ عُرِفَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

وَقَدْ وَجَّهَ الْإِسْلَامُ قَرِيحَةَ الْحِفْظِ وَالذَّكَاءِ إِلَىٰ حِفْظِ الدِّينِ وَحِمَايَتِهِ، فَكَانَتْ قُوَاهُمُ الْفِكْرِيَّةُ وَمَوَاهِبُهُمُ الْفِطْرِيَّةُ مَذْخُورَةً فِيهِمْ لَمْ تُسْتَهْلَكْ فِي فَلْسَفَاتٍ خَيَالِيَّةٍ، وَلَا فِي جِدَالٍ بِيزَنْطِيٍّ عَقِيمٍ، وَلَا فِي مَذَاهِبَ كَلَامِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ.

وَاتِّسَاعُ لُغَتِهِمْ دَلِيلٌ عَلَىٰ قُوَّةِ حِفْظِهِمْ وَذَاكِرَتِهِمْ؛ فَإِذَا كَانَ لِلْعَسَلِ عِنْدَهُمْ ثَمَانُونَ اسْمًا، وَلِلثَّعْلَبِ مِئَتَانِ، وَلِلْأَسَدِ خَمْسُمِئَةِ اسْمٍ، وَكَذَلِكَ لِلْجَمَلِ لَهُ أَلْفُ اسْمٍ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَكَذَا السَّيْفُ، وَلِلدَّاهِيَةِ نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ اسْمٍ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: مِنَ الدَّوَاهِي كَثْرَةُ أَسْمَاءِ الدَّوَاهِي؛ فَالدَّاهِيَةُ لَهَا نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ اسْمٍ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ اسْتِيعَابَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذَاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ حَاضِرَةٍ وَقَّادَةٍ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ إِلَىٰ الْفَهْمِ بِالْإِشَارَةِ، فَضْلًا عَنِ الْعِبَارَةِ، وَالْأَمْثِلَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ ضَافِيَةٌ وَكَثِيرَةٌ.

مِنْ فَضَائِلِهِمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كَرَمٍ وَسَخَاءٍ، كَانَ هَذَا الْخُلُقُ مُتَأَصِّلًا فِي الْعَرَبِ، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ إِلَّا فَرَسُهُ أَوْ نَاقَتُهُ، فَيَأْتِيهِ الضَّيْفُ فَيُسَارِعُ إِلَىٰ ذَبْحِهَا أَوْ نَحْرِهَا لَهُ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يَكْتَفِي بِإِطْعَامِ الْإِنْسَانِ، بَلْ كَانَ يُطْعِمُ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ، وَكَرَمُ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَانُ، وَضُرِبَتْ بِهِ الْأَمْثَالُ.

وَمِنْ فَضَائِلِهِمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ شَجَاعَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَنَجْدَةٍ، وَكَانُوا يَتَمَادَحُونَ بِالْمَوْتِ قَتْلَىٰ، وَيَتَهَاجَوْنَ بِالْمَوْتِ عَلَىٰ الْفِرَاشِ.

قَالَ أَحَدُهُمْ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ أَخِيهِ: إِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ وَعَمُّهُ، إِنَّا وَاللهِ لَا نَمُوتُ حَتْفًا، وَلَكِنْ قَطْعًا بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ.

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلَىٰ حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ عَلَىٰ غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وَكَانَ الْعَرَبُ لَا يُقَدِّمُونَ شَيْئًا عَلَىٰ الْعِزِّ، وَصِيَانَةِ الْعِرْضِ، وَحِمَايَةِ الْحَرِيمِ، وَاسْتَرْخَصُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ نُفُوسَهُمْ؛ قَالَ عَنْتَرَةُ:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْحُتُوفَ كَأَنَّنِي ... أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعْزِلِ
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْهَلٌ ... لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَىٰ بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ
فَاقْنِي حَيَاءَكِ لَا أَبَا لَكِ وَاعْلَمِي ... أَنِّي امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

وَقَالَ أَيْضًا:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ ... بَلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ
مَاءُ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ ... وَجَهَنَّمٌ بِالْعِزِّ أَطْيَبُ مَنْزِلِ

وَكَانَ الْعَرَبُ بِفِطْرَتِهِمْ أَصْحَابَ شَهَامَةٍ وَمُرُوءَةٍ فَكَانُوا يَأْبَوْنَ أَنْ يَنْتَهِزَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ أَوِ الْعَاجِزَ أَوِ الْمَرْأَةَ أَوِ الشَّيْخَ، وَكَانُوا إِذَا اسْتَنْجَدَ بِهِمْ أَحَدٌ أَنْجَدُوهُ، وَيَرَوْنَ مِنَ النَّذَالَةِ التَّخَلِّيَ عَمَّنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ.

مِنْ مَآثِرِهِمْ: عِشْقُهُمْ لِلْحُرِّيَّةِ، وَإِبَاؤُهُمْ لِلضَّيْمِ وَالذُّلِّ؛ كَانَ الْعَرَبِيُّ بِفِطْرَتِهِ يَعْشَقُ الْحُرِّيَّةَ يَحْيَا لَهَا، وَيَمُوتُ مِنْ أَجْلِهَا؛ فَقَدْ نَشَأَ طَلِيقًا، لَا سُلْطَانَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، وَيَأْبَىٰ أَنْ يَعِيشَ ذَلِيلًا، أَوْ يُمَسَّ فِي شَرَفِهِ وَعِرْضِهِ، وَلَوْ كَلَّفَهُ ذَلِكَ حَيَاتَهُ، فَقَدْ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنَ الذُّلِّ، وَيَأْبَوْنَ الضَّيْمَ، وَالِاسْتِصْغَارَ، وَالِاحْتِقَارَ؛ وَإِلَيْكَ مِثَالًا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ:

www.menhag-un.com

جَلَسَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ مَلِكُ الْحِيرَةِ لِنُدَمَائِهِ وَسَأَلَهُمْ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ تَأْنَفُ أُمُّهُ خِدْمَةَ أُمِّي؟ قَالُوا: نَعَمْ، أُمُّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ الشَّاعِرِ!

فَدَعَا الْمَلِكُ عَمْرَو بْنَ كُلْثُومٍ لِزِيَارَتِهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُزِيرَ أُمَّهُ أُمَّهُ، وَقَدِ اتَّفَقَ الْمَلِكُ مَعَ أُمِّهِ أَنْ تَقُولَ لِأُمِّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ بَعْدَ الطَّعَامِ: نَاوِلِينِي الطَّبَقَ الَّذِي بِجَانِبِكِ.

فَلَمَّا جَاءَتْ قَالَتْ لَهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ أُمُّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ: لِتَقُمْ صَاحِبَةُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ حَاجَتِهَا!

فَأَعَادَتْ عَلَيْهَا الْكَرَّةَ وَأَلَحَّتْ، فَصَاحَتْ لَيْلَىٰ أُمُّ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ: وَاذُلَّاهُ يَا لَتَغْلِبَ!

فَسَمِعَهَا ابْنُهَا، فَاشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ، فَرَأَىٰ سَيْفًا لِلْمَلِكِ مُعَلَّقًا بِالرُّوَاقِ فَتَنَاوَلَهُ، وَضَرَبَ بِهِ رَأْسَ الْمَلِكِ عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ، وَنَادَىٰ فِي بَنِي تَغْلِبَ، وَانْتَهَبُوا مَا فِي الرُّوَاقِ، وَنَظَمَ قَصِيدَتَهُ يُخَاطِبُ فِيهَا الْمَلِكَ قَائِلًا:

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا

تُهَدِّدُنَا وَتُوعِدُنَا رُوَيْدًا ... مَتَىٰ كُنَّا لِأُمِّكَ مُقْتَوِينَا؟!

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

فَهَذَا مِنْ أَخْلَاقِهِمْ، بَلْ مِنْ أَبْرَزِ أَخْلَاقِهِمْ.

وَمِنْ مَآثِرِهِمُ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَحُبُّهُمْ لِلصَّرَاحَةِ وَالْوُضُوحِ وَالصِّدْقِ، كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَيَعِيبُونَهُ، وَكَانُوا أَهْلَ وَفَاءٍ؛ لِهَذَا كَانَتِ الشَّهَادَةُ بِاللِّسَانِ كَافِيَةً لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَفَتِهِمْ مِنَ الْكَذِبِ: قِصَّةُ أَبِي سُفْيَانَ مَعَ هِرَقْلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتِ الْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ قَائِمَةً، قَالَ: «**لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

أَمَّا وَفَاؤُهُمْ، فَقَد قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ لِكِسْرَىٰ فِي بَيَانِ وَفَاءِ الْعَرَبِ: «فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَلْحَظُ اللَّحْظَةَ، وَيُومِئُ الْإِيمَاءَةَ فَإِذَا هِيَ وَلْثٌ وَعُقْدَةٌ لَا يَحُلُّهَا إِلَّا خُرُوجُ نَفْسِهِ، وَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَرْفَعُ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ، فَيَكُونُ رَهْنًا بِدَيْنِهِ فَلَا يُغْلَقُ رَهْنُهُ، وَلَا تُخْفَرُ ذِمَّتُهُ، وَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَبْلُغُهُ أَنَّ رَجُلًا اسْتَجَارَ بِهِ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ نَائِيًا عَنْ دَارِهِ فَيُصَابَ، فَلَا يَرْضَىٰ حَتَّىٰ يُفْنِيَ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُ أَوْ تَفْنَىٰ قَبِيلَتُهُ لِمَا أُخْفِرَ مِنْ جِوَارِهِ، وَإِنَّهُ لَيَلْجَأُ إِلَيْهِمُ الْمُجْرِمُ الْمُحْدِثُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا قَرَابَةٍ، فَتَكُونُ أَنْفُسُهُمْ دُونَ نَفْسِهِ، وَأَمْوَالُهُمْ دُونَ مَالِهِ».

الْوَفَاءُ خُلُقٌ مُتَأَصِّلٌ بِالْعَرَبِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ فَوَجَّهَهُ الْوِجْهَةَ السَّلِيمَةَ، فَغَلَّظَ عَلَىٰ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ وَقَرَابَتُهُ، وَقَالَ ﷺ: «**وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا**».

فَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ كَانَ مِنْ فَضَائِلِ الْعَرَبِ، وَمِنْ أَخْلَاقِهِمُ الْأَصِيلَةِ، فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ؛ قِصَّةُ السَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ، وَكَانَ يَهُودِيًّا، قِصَّتُهُ فِي

الْوَفَاءِ مَشْهُورَةٌ؛ فَقَدْ ضَحَّىٰ بِابْنِهِ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَخُونَ الْعَهْدَ بِتَسْلِيمِ الْأَدْرُعِ الَّتِي أُودِعَتْ عِنْدَهُ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّهُ لَمَّا ظَفَرَ الْحَارِثُ بْنُ عَبَّادٍ بِقَاتِلِ ابْنِهِ وَهُوَ الْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ فِي حَرْبِ الْبَسُوسِ، لَمَّا ظَفَرَ بِهِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، قَالَ لَهُ الْمُهَلْهِلُ: إِذَا دَلَلْتُكَ عَلَىٰ الْمُهَلْهِلِ تُطْلِقُنِي؟ فَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبَّادٍ: نَعَمْ!

فَقَالَ لَهُ: أَنَا! أَنَا الْمُهَلْهِلُ!

فَاكْتَفَىٰ بِأَنْ جَذَّ نَاصِيَتَهُ وَتَرَكَهُ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُخْلِفَ وَعْدَهُ مَعَ أَنَّهُ هُوَ قَاتِلُ وَلَدِهِ!

كَذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمُ: الْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، فَقَدْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يُنَازِلُ خَصْمَهُ وَقِرْنَهُ حَتَّىٰ إِذَا أَمْكَنَهُ اللهُ مِنْهُ، عَفَا عَنْهُ وَتَرَكَهُ، بَلْ كَانَ يَأْبَىٰ أَنْ يُجْهِزَ عَلَىٰ جَرِيحٍ.

مِنْ أَخْلَاقِهِمْ: حِمَايَةُ الْجَارِ، وَإِجَارَةُ الْمُسْتَجِيرِ، وَكَانُوا إِذَا اسْتَجَارَ بِالْوَاحِدِ مِنْهُمْ مُسْتَجِيرٌ أَجَارَهُ، وَرُبَّمَا ضَحَّىٰ بِنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ فِي سَبِيلِ إِجَارَتِهِ، كَمَا كَانُوا يَرْعَوْنَ حُقُوقَ الْجَارِ، وَلَا سِيَّمَا رِعَايَةُ حُرَمِهِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ عِرْضِهِ قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حَتَّىٰ يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا

وَمِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَفَضَائِلِهِمُ: الْقَنَاعَةُ وَالرِّضَا بِالْيَسِيرِ: فَمِنْ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ الْقَنَاعَةُ، وَهِيَ الرِّضَا بِالْيَسِيرِ، وَلَعَلَّ طَبِيعَةَ الْبِلَادِ هِيَ الَّتِي فَطَرَتْهُمْ عَلَىٰ هَذَا الْخُلُقِ؛ فَقَدْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسِيرُ الْأَيَّامَ مُكْتَفِيًا بِتَمَرَاتٍ يُقِيمُ بِهَا صُلْبَهُ، وَرَشْفَاتٍ مِنْ مَاءٍ يُرَطِّبُ بِهَا كَبِدَهُ، وَكَذَلِكَ قِلَّةُ تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ جَعَلَتْهُمْ يَكْتَفُونَ بِالْقَلِيلِ؛ قَالَ قَائِلُهُمْ:

إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ إِبِلٌ فَمِعْزَىٰ ... كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا الْعِصِيُّ

فَتَمْلَأُ بَيْتَنَا أَقِطًا وَسَمْنًا ... وَحَسْبُكَ مِنْ غِنًىٰ شِبَعٌ وَرِيُّ

وَمِنْ أَخْلَاقِهِمْ: قُوَّةُ الرُّوحِ، وَعَظَمَةُ النَّفْسِ، وَالْعَرَبِيُّ يَمْتَازُ إِلَىٰ شَجَاعَتِهِ الْبَدَنِيَّةِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ، وَعَظَمَةِ النَّفْسِ، وَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْبُطُولَةُ النَّفْسِيَّةُ إِلَىٰ الْبُطُولَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ صَنَعَتَا الْعَجَائِبَ، وَهَذَا مَا حَدَثَ بَعْدَ تَشَرُّفِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَتَوَحُّدِهِمْ تَحْتَ لِوَائِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَهَابُوا الْفُرْسَ وَلَا الرُّومَ عَلَىٰ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ مَعَهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ.

كَانُوا يَصْبِرُونَ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ بِقُوَّةِ الِاحْتِمَالِ، وَالرِّضَا بِالْيَسِيرِ، وَالْقَنَاعَةِ بِالْمَيْسُورِ، كَانُوا يَقُومُونَ مِنَ الْأَكْلِ وَيَقُولُونَ: الْبِطْنَةُ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ، وَيَعِيبُونَ الرَّجُلَ الْأَكُولَ الْجَشِعَ.

قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِذَا مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَىٰ الزَّادِ لَمْ أَكُنْ ... بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ

هَذِهِ الْفَضَائِلُ وَغَيْرُهَا كَانَتْ رَصِيدًا مُدَّخَرًا فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ حَتَّىٰ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَنَمَّاهَا وَقَوَّاهَا، وَوَجَّهَهَا وِجْهَةَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا كَانُوا انْطَلَقُوا مِنْ شِبْهِ جَزِيرَتِهِمْ كَمَا يَنْطَلِقُ الْمَلَائِكَةُ الْأَطْهَارُ؛ فَفَتَحُوا الْأَرْضَ، وَمَلَئُوهَا إِيمَانًا بَعْدَ أَنْ مُلِئَتْ كُفْرًا، وَعَدْلًا بَعْدَ أَنْ مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَفَضَائِلَ بَعْدَ أَنْ عَمَّهَا الرَّذَائِلُ، وَخَيْرًا بَعْدَ أَنْ طَفَحَتْ شَرًّا، وَتَحَقَّقَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

مَدَنِيَّةُ الْعَرَبِ وَحَضَارَتُهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

الْعَرَبُ كَانَتْ لَهُمْ مَدِنَيَّتُهُمْ وَحَضَارَتُهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ -كَمَا مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ-، وَمَفْهُومُ الْحَضَارَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ عُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ مِنْهُمْ خَاصَّةً؛ هِيَ كَمَا بَيَّنَهَا ابْنُ خَلْدُونَ فِي «مُقَدِّمَتِهِ» أَنَّ الْحَضَارَةَ: «عِبَارَةٌ عَنْ نَمَطٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُسْتَقِرَّةِ يُنْشِئُ الْقُرَىٰ وَالْأَمْصَارَ، وَيُضْفِي عَلَىٰ حَيَاةِ أَصْحَابِهِ فُنُونًا مُنْتَظِمَةً مِنَ الْعَيْشِ، وَالْعَمَلِ، وَالِاجْتِمَاعِ، وَالْعِلْمِ، الصِّنَاعَةِ، وَإِدَارَةِ شُئُونِ الْحَيَاةِ، وَالْحُكْمِ، وَتَرْتِيبِ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَأَسْبَابِ الرَّفَاهِيَةِ».

أَمَّا مَفْهُومُ الْحَضَارَةِ عِنْدَ الْمُحْدَثِينَ، فَيُعَرِّفُهَا أَصْحَابُ الْمَعَاجِمِ بِأَنَّهَا: «مَظَاهِرُ الرُّقِيِّ الْعِلْمِيِّ وَالْفَنِّيِّ وَالْأَدَبِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ فِي الْحَضَرِ».

وَلَا يُعَكِّرُ عَلَىٰ هَذَا التَّعْرِيفِ إِلَّا قَصْرُ تِلْكَ الْمَظَاهِرِ عَلَىٰ الْحَضَرِ؛ أَيِ: الْمُدُنِ، مَعَ أَنَّ الْمَكَانَ لَا دَخْلَ لَهُ فِي تَغْيِيرِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَطَبَائِعِهَا؛ فَهَلْ لَوْ وُجِدَتْ تِلْكَ الْمَظَاهِرُ أَوْ بَعْضُهَا لِقُرًىٰ أَصْبَحَتْ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ؟!

مَا نَظُنُّ هَذَا؛ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ تَعْرِيفُ ابْنِ خَلْدُونَ أَسْلَمَ مَنْطِقًا، وَأَشْمَلَ مَفْهُومًا، وَأَدَقَّ تَحْدِيدًا.

www.mennag-un.com

الْحَضَارَةُ فِي اللُّغَةِ: الْإِقَامَةُ الثَّابِتَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الْمُدُنِ وَالْقُرَىٰ، تُقَابِلُهَا الْبَدَاوَةُ، وَصِلَةُ المَعْنَىٰ اللُّغَوِيِّ بِالْمَعْنَىٰ الِاصْطِلَاحِيِّ الْآتِي بَيَانُهُ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ الْإِقَامَةَ الثَّابِتَةَ فِي الْمُدُنِ أَوِ الْقُرَىٰ تَسْتَلْزِمُ النَّشَاطَ الْعَقْلِيَّ وَالْوِجْدَانِيَّ وَالسُّلُوكِيَّ الَّذِي يُنْتِجُ الْحَضَارَةَ.

فَيُسْتَخْلَصُ مِنَ التَّعْرِيفَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ أَنَّ الْحَضَارَةَ عِبَارَةٌ عَنْ: إِنْتَاجِ الْإِنْسَانِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْوَاعِي؛ بِحَيْثُ تَتَجَلَّىٰ فِي هَذَا الْإِنْتَاجِ خَصَائِصُهُ الْفِكْرِيَّةُ وَالْوِجْدَانِيَّةُ وَالسُّلُوكِيَّةُ، وَهَذَا الْمَفْهُومُ يَتَّسِعُ لِكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالرُّوحِ وَالْفِكْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنِ الْجَانِبِ الْمَادِّيِّ مِنَ الْعُمْرَانِ، وَمَا يُنْتِجُهُ الْعِلْمُ التَّجْرِيبِيُّ وَالِاخْتِرَاعُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِجَمِيعِ مَرَافِقِ الْحَيَاةِ؛ كَالصِّنَاعَةِ، وَالزِّرَاعَةِ، وَالطِّبِّ، وَالْهَنْدَسَةِ، وَمَا إِلَيْهَا مِمَّا يَكُونُ عَوْنًا عَلَىٰ تَيْسِيرِ الْعَيْشِ وَرَغَدِ الْحَيَاةِ.

كَمَا يُسْتَخْلَصُ مِنْ هَذَا أَيْضًا: أَنَّ الْمُجْتَمَعَاتِ تَخْتَلِفُ فِي نُمُوِّهَا الْحَضَارِيِّ بِمِقْدَارِ مَا تُسْهِمُ فِي تَحْقِيقِ عَنَاصِرِ الْحَضَارَةِ فِي حَيَاتِهَا، وَبِمِقْدَارِ مَا يُسْعِفُهَا وَعْيُهَا وَظُرُوفُهَا الْبِيئِيَّةُ فِي هَذَا الصَّدَدِ.

بِنَاءً عَلَىٰ هَذَا: هَلْ كَانَتْ لِلْعَرَبِ حَضَارَةٌ قَبْلَ الْإِسْلَامِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، قَدْ كَانَتْ لَهُمْ حَضَارَةٌ فِي الْيَمَنِ، وَفِي دِيَارِ عَادٍ، وَفِي دِيَارِ ثَمُودَ، وَفِي الْحِيرَةِ، وَفِي بِلَادِ غَسَّانَ، وَفِي بِلَادِ الشَّامِ، بَلْ وَفِي بِلَادِ الْحِجَازِ ذَاتِهَا؛ فِي مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ، وَالطَّائِفِ، وَقَدْ عَلِمْنَا مَا كَانَ فِي الْيَمَنِ مِنْ قِيَامِ مَمَالِكَ

ذَاتِ سِيَادَةٍ وَسُلْطَانٍ، وَلَهَا نُظُمٌ وَقَوَانِينُ، وَمَجَالِسُ شُورَىٰ وَقَضَاءٌ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْمَمَالِكُ مِنْ حَضَارَةٍ زَاهِيَةٍ وَعِلْمٍ، فَقَدْ أَقَامُوا السُّدُودَ وَالْخَزَّانَاتِ لِلِاسْتِفَادَةِ بِالْمَاءِ وَعَدَمِ تَبَدُّدِهِ فِي الصَّحْرَاءِ، وَبِذَلِكَ تَمَّ لَهُمْ تَنْظِيمُ الصَّرْفِ وَالرَّيِّ، وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذَا يَتَطَلَّبُ فَنًّا وَعِلْمًا بِالْأُصُولِ الْهَنْدَسِيَّةِ، وَتَقَدُّمًا فِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ، وَنَاهِيكَ بِسَدِّ مَأْرِبٍ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَفْخَمِ وَأَعْظَمِ مَا صَنَعَهُ الْإِنْسَانُ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ، وَفِيمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ مَمْلَكَةِ سَبَأٍ، وَمَا كَشَفَ عَنْهُ عُلَمَاءُ الْآثَارِ فِي الزَّمَنِ الْأَخِيرِ مَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَتِ الْيَمَنُ مِنْ بَسْطِ الْعَيْشِ، وَرَخَاءِ الْحَيَاةِ، وَفَخَامَةِ الْمَدَنِيَّةِ مَا حَمَلَ مُعَاصِرِيهِمْ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ أَنْ يُسَمُّوا بِلَادَهُمْ: بِلَادَ الْعَرَبِ السَّعِيدَةَ.

كَذَلِكَ كَانَ فِي عَادٍ حَضَارَةٌ زِرَاعِيَّةٌ وَصِنَاعِيَّةٌ وَتِجَارِيَّةٌ وَمِعْمَارِيَّةٌ، وَكَذَلِكَ كَانَ فِي ثَمُودَ، وَبِحَسْبِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْحِتُونَ فِي الْجِبَالِ بُيُوتًا فِي غَايَةِ الدِّقَّةِ وَالْإِحْكَامِ، كَذَلِكَ قَامَتْ فِي الْحِيرَةِ عَلَىٰ تُخُومِ بِلَادِ فَارِسَ مَمْلَكَةٌ ذَاتُ شَأْنٍ، وَقَامَتْ حَضَارَةٌ بَلَغَتْ فِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَبِحَسْبِنَا الْقَصْرَانِ الشَّهِيرَانِ: الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ؛ اللَّذَانِ مَا تَزَالُ آثَارُهُمَا بَاقِيَةً إِلَىٰ الْآنِ.

وَفِي بِلَادِ غَسَّانَ قَامَتْ حَضَارَةٌ، وَكَانَ هُنَاكَ عُمْرَانٌ وَتِجَارَةٌ وَزِرَاعَةٌ وَصِنَاعَةٌ، وَنُظُمٌ وَقَوَاعِدُ لِضَبْطِ شُئُونِ الْمُلْكِ، وَفِي دَوْلَةِ الْأَنْبَاطِ قَامَتْ مَمْلَكَةٌ وَكَانَتْ حَضَارَةٌ، وَفِي دَوْلَةِ تَدْمُرَ قَامَتْ مَمْلَكَةٌ وَكَانَتْ حَضَارَةٌ أَصِيلَةٌ، وَلَا تَزَالُ

آثَارُ الْمَعَابِدِ وَالْقُصُورِ فِي هَاتَيْنِ الدَّوْلَتَيْنِ بَاقِيَةً إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، شَاهِدَةً عَلَىٰ مَا بَلَغَ الْقَوْمُ مِنْ حَضَارَةٍ.

وَإِذَا صَحَّ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ دَوْلَةَ (**حَمُورَابِي**) فِي بَابِلَ كَانَتْ عَرَبِيَّةً، وَأَنَّ أَصْلَهَا هُمُ الْعَمَالِيقُ الَّذِينَ نَزَحُوا مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَىٰ بِلَادِ الْعِرَاقِ، ثُمَّ كَوَّنُوا لَهُمْ مَمْلَكَةً بِبَابِلَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ الْمِيلَادِ، إِذَا صَحَّ هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الدَّوْلَةُ مِنْ أَقْوَىٰ الشَّوَاهِدِ عَلَىٰ حَضَارَةِ الْعَرَبِ؛ فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لَا تَقِلُّ فِي الْحَضَارَةِ وَالْمَدَنِيَّةِ عَنْ أَرْقَىٰ أُمَمِ الْأَرْضِ حَضَارَةً فِي زَمَانِهَا، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْعَرَبَ الْعَمَالِيقَ مَلَكُوا مِصْرَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَأَنَّهُمْ أَسَّسُوا بِهَا أُسْرَةً مَالِكَةً فَلَمْ يَكُونُوا أَقَلَّ مِنَ الْأُسَرِ الْمِصْرِيَّةِ فِي شَيْءٍ.

كَذَلِكَ نَشَأَتْ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ حَضَارَةٌ فِي مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ، وَالطَّائِفِ، وَنَحْوِهَا مِنَ الْمُدُنِ الْمَشْهُورَةِ؛ فَكَانَ هُنَاكَ بِنَاءٌ وَعِمَارَةٌ، وَكَانَتْ هُنَاكَ تِجَارَةٌ وَتُجَّارٌ مَهَرَةٌ يُصَيِّرُونَ مِنْ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ ذَهَبًا، وَكَانَتْ هُنَاكَ زِرَاعَةٌ وَبَسَاتِينُ؛ فِي الْمَدِينَةِ، وَفِي الطَّائِفِ، وَفِي الْيَمَامَةِ، وَفِي هَجَرَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ مَجْلِسٌ لِلشُّورَىٰ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَدَارٌ لِهَذَا.

وَإِذَا كَانَ الْجَانِبُ الْأَخْلَاقِيُّ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُهِمَّةِ فِي تَكْوِينِ الْحَضَارَةِ، فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ حَضَرًا وَبَدَوًا مِنْ ذَلِكَ رَصِيدٌ ضَخْمٌ؛ مِنْ كَرَمٍ وَشَجَاعَةٍ، وَحِمَايَةٍ لِلذِّمَارِ، وَمُرُوءَةٍ وَنَجْدَةٍ، وَرِعَايَةٍ لِلْجَارِ، وَوَفَاءٍ بِالْعَهْدِ، وَإِبَاءٍ لِلضَّيْمِ وَالذُّلِّ،... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَإِنَّ حَضَارَةَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْأَصِيلَةِ لَأَهَمُّ مِنْ حَضَارَةِ الْبِنَاءِ وَالصِّنَاعَةِ وَالزِّرَاعَةِ؛ إِذْ عَلَيْهَا تَقُومُ الْأُمَمُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ وَالْخُلُودَ، وَمَاذَا تُجْدِي الْحَضَارَةُ الْمَادِّيَّةُ إِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ خَالِيَةً مِنَ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ؟!

لَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ خَصَائِصُ فِطْرِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ وَخُلُقِيَّةٌ هِيَ الَّتِي أَهَّلَتْهُمْ بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَقِمَّةُ الْعَرَبِ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْ يَكُونُوا حَمَلَةَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْخَالِدَةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ، وَإِذْ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مَمَالِكُ وَحَضَارَاتٌ سَاهَمَتْ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ فِي بِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَا تَعَجُّبَ إِذَا كَانُوا لَمَّا اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ عَنْ يَقِينٍ وَاقْتِنَاعٍ، صَنَعُوا الْأَعَاجِيبَ فِي بَابِ الْحَضَارَةِ، وَبَلَغُوا فِيهَا شَأْوًا لَمْ تَبْلُغْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا تَزَالُ آثَارُ هَذِهِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَاقِيَةً إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَضَارَةُ مِنْ أَقْوَىٰ الْأُسُسِ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا الْحَضَارَةُ الْأُورُوبِّيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، كَمَا شَهِدَ بِذَلِكَ الْمُنْصِفُونَ مِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الْبِلَادِ.

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَبْقَىٰ عَلَىٰ الصُّورَةِ الذِّهْنِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ مِنْ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فَضْلٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْمَسِيرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالرُّقِيِّ الْحَضَارِيِّ لِبَنِي الْإِنْسَانِ فِي

هَذَا الْوُجُودِ. كَانَتْ قُوَىٰ الْعَرَبِ الْعَمَلِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ، وَمَوَاهِبُهُمُ الْفِطْرِيَّةُ، مَذْخُورَةً فِيهِمْ لَمْ تُسْتَهْلَكْ، فَكَانَتْ أُمَّةً بِكْرًا دَافِقَةً بِالْحَيَاةِ وَالنَّشَاطِ، وَالْعَزْمِ وَالْحَمَاسِ.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ** -أَيْ: أَصْلَبُهُمْ فِي مُرَاعَاةِ الدِّينِ؛ بِحَيْثُ لَا يُرَاعِي أَحَدًا فِيهِ-، **وَأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَقْرَؤُهَا لِكِتَابِ اللهِ أُبَيٌّ، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**».

كَانَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ أَشَدِّ الْفَتَرَاتِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ ظُلْمَةً وَانْحِطَاطًا، وَكَانَتْ أَبْعَدَ عَنْ كُلِّ أَمَلٍ فِي الْإِصْلَاحِ، وَهِيَ أَصْعَبُ مَرْحَلَةٍ وَاجَهَهَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَدَقُّهَا.

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَالْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: **وَاللهِ لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا فِيهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ؛ حَتَّىٰ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَىٰ وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ**

حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَالَةِ الْخُلُقِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ قَبْلَ بِعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com